فى أيام الإنكشارية

اسكندر باليس — هتشنسون، لندن عام ١٩٥١

In the Days of the Janissaries ALEXANDER PALLIS — Hutchinson's.

يصف هذا الكتاب الإمبراطورية العثمانية خلال القرن السابع عشر، فى الوقت الذى كانت فيه فرقة الانكشارية تضطلع بأهم أدوار مقومات السلطنة.

اعتمد المؤلف فى مادة كتابه على ذلك السفر المعروف «سياحة نامه» للرحالة التركى أوليا شلبى (١٦١١ — ١٦٨٠) — وهو الكتاب التركى الضخم الذى يعاد نشره باللغة التركية طبعة علمية ممتازة.

ويتعين علينا، قبيل التحدث عن «فى أيام الانكشارية» الذى نحن بصدده، أن نلم بالمرجع الرئيسى «سياحة نامة» لأنه بمثابة الأصل للفرع؛ ولعل أول شىء يجدر ذكره أنه يقع فى عشرة أجزاء كما يلى:

الجزء الأول — وصف استانبول وضواحيها فى عام ١٦٣١.

الجزء الثانى — الرحلة إلى بروسة وازميت (١٦٤٠) وأقاليم البحر الأسود من الأناضول والقوقاز والقرم (١٦٤٠ — ٤٤) وفتح كريت (١٦٤٥) — ثم وصف رحلة أوليا إلى أرضروم والقوقاز ثانية (١٦٤٦ — ٤٨).

والحديث عن هذين الجزئين يقتضينا أن ننوه بأن المستشرق النمسوى جوزيف فون هامر بورجستال، الخبير فى تاريخ آل عثمان، قد نقلهما إلى الانجليزية فى عام ١٨٣٤.

الجزء الثالث — رحلة الشام وكوردستان وأرمينية (١٦٥٠) ورميللى (تراقية ومقدونية وما إليها) وبلغاريا ودوبروجه وما إليها (١٦٥٣ — ٥٥).

الجزء الرابع — الرحلة إلى فارس والعراق (١٦٥٥ — ٥٦).

الجزء الخامس — الرحلة إلى مولدافيا وتجريدة بولندة وروسيا (١٦٥٧ — ٥٨) وتجريدة الأناضول والرحلة إلى الدردنيل وأدرنة (١٦٥٩) وتجريدة مولدافيا ودالماشيا (١٦٦٠).

الجزء السادس – تجريدة ترانسلفانيا والرحلة إلى ألبانيا (١٦٦١ – ٦٢) وتجريدة المجر والجبل الأسود والكروات (١٦٦٣ – ٦٤) .

الجزء السابع – رحلات النمسا والقرم والقوقاز – وكيبشاك واستراخان (١٦٦٤ – ٦٨) .

الجزء الثامن – تجريدة كريت وماينا فى المورة (١٦٦٩) ورحلات مقدونية ورومياليا (١٦٦٩) .

الجزء التاسع – الحج إلى مكة والمدينة .

الجزء العاشر – رحلة مصر والسودان .

ومما يذكر أنه قد نشرت مقتبسات اقتطفت من الأجزاء (الثالث – الرابع – الخامس – السادس) دون أن ينشر مما تبقى شىء بعد .

نعود إلى كتابنا موضع التعليق لنقول إن الشىء الذى أقدم عليه مستر باليس – اليوم – هو هضمه لمحتويات أجزاء المرجع المستفيض واختياره لأهم ما يرغب القارئ الغربى معرفته من عادات وطقوس وتقاليد وبعبارة مختصرة : وصف المجتمع العثمانى فى القرن السابع عشر .

وقد قسّم مستر باليس ، وهو يونانى النشأة إنجليزى الجنسية يعرف التركية ، مؤلفه إلى قسمين ، تناول فى القسم الأول الكلام عن فرقة الانكشارية ومنشأها وتاريخها ، منذ عام ١٣٢٦ إلى أن أبادها السلطان محمود الثانى فى عام ١٨٢٦ . وغنى عن التعريف أن كلمة انكشارية معناها « الجنود الجدد » (يني شيرى) ، وهو تحريف للاصطلاح الفارسى (جان نصار)، أى الذين يضحون بحياتهم .

ويقوم الجزء الثانى من القسم الآنف على الحديث عن المؤلف أوليا شلبى وعصره .

أما القسم الثانى من الكتاب فينطوى على تسعة فصول موزعة على الموضوعات الآتية :

استانبول وأحياؤها وضواحيها – السراى – طوائف الحرف (مقالان) – الشيوخ والدراويش – الموسيقى والشعر والفنون – الألعاب الرياضية – الألعاب المسلية الصغيرة – أصناف المآكل والمطاعم فى استانبول .

ومن ذلك العرض الموجز أو الملخص نرى أن مستر باليس قد اقتبس

بحق أهم ما يرغب الوقوف عليه من وصف المجتمع العثمانى وأحواله ، فجاء عمله كلوحة بديعة من الفسيفساء ، وإن كانت غير منتظمة فى اللون والتركيب ، ثم أضاف إلى الكتاب عدة لوحات لطيفة توضح حياة البلاد والمجتمع أخذها عن أهم رسوم الكتب التركية .

وعلى هذا يصح أن نعتبر الكتاب « مختارات من سياحة نامه » وليس ملخصا وافياً له فى كافة أجزائه .

* * *

استوعب المؤلف وصف استانبول وأحيائها كما كانت عليه فى زمان أوليا وضواحيها (يدى كولى وأيوب وكياجتشانيه وخاصكوى والترسانة وقاسم باشا وما إليها) وذكر أهم مبانيها ومساجدها ووصف عمارتها فى أسلوب سهل أخاذ .

وأتى على ذكر الطوائف الدينية وطقوسها وملابس رجالها وأعيادها فى عصره — ورجال الدين إذ ذاك يتمتعون بالسلطة الأولى وبالنفوذ الكامل فى البلاط والمجتمع — ثم وصف تكايا الدراويش وخانقاتهم وطرق معيشتهم .

ومن أطرف أقسام الكتاب كلامه عن الشعر والموسيقى والفنون ، وجاءت مقتبساته عن أوليا فى محلها ، وأبان لنا تلك المكانة التى كان يتمتع بها أعلام الموسيقى والفنون والشعر ، ورجال العمارة الذين خلفوا تراثا تشهد به المدن العثمانية فى أوربا وآسيا .

والحق أن مستر باليس تهيأ له كل النجاح فى فصوله الأخيرة من كتابه : فقد نقل إلى قراء اللغة الانجليزية العاديين أهم ما كانوا يجهلونه إلى وقت قريب جداً عن الثقافة العثمانية الإسلامية ، فالكتاب يستطيع أن يقرأه القارئ العادى لطرافته وسهولة أسلوبه ، ولا نقول سطحيته ، ذلك لأن المؤلف الأصلى كان عثمانياً قحاً تناول ما سطره قلمه عن علم واف ومعرفة عميقة .

ولعل أشهر ما تضمنه الكتاب فصله الختامى ، وهو مآكل استانبول ومطاعمها وما احتوت عليه من مصنفات الحلوى والشراب ، وذكر ما اختص به كل حى من أحياء العاصمة من الأطباق الخاصة به .

وإلى جانب تلك المعلومات المستفيضة بالكتاب ، فقد نقل إلينا مستر باليس الشىء الكثير من حياة أوليا شلبى (ص ١٠٨ — ١١٦) التى كنا نجهلها وصلته بالسلطان مراد الرابع الذى قربه منه وخلع عليه النعم والهدايا ورعاه بتشجعيه .

ولا يفوت القارئ أن اسم أوليا جلبى (الولى الفاضل) الحقيقى محمد ظلى أفندى وقد ولد فى سنة ١٠٢٠ وتوفى فى عام ١٠٩٠ . حدثنا الأستاذ وصفى ذكريا[1] عنه ، قال :

إنه لم يوفق فى صباه فى تلقى العلوم وأن جمال صوته ساقه للولع بفنون الأدب والموسيقى إلى أن كان ذات يوم فى رمضان عام ١٠٤٥ يتلو القرآن فى جامع أياصوفيا فأعجب السلطان مراد الرابع بصوته ورفعه إلى قصره وجعله من ندمائه . إلا أن تلك الأبهة والنعمة اللتين صادفهما أوليا جلبى فى القصر كانتا محوطتين بضروب التقييد، فلم تروقا لعينيه ولم تتفقا مع خفته وظرفه وحبه الحرية والانطلاق وشغفه بالسفر ، فغادر القصر بعد مكوث سنتين وراح يجول فى الأمصار ، تارة منفرداً وتارة مع كبار الوزراء والقادة ولا سيما مع خاله ملك أحمد أحد صدور ذاك العهد العظام ، ورافق الجيوش التى ساقتها الدولة العثمانية إذ ذاك فى الشرق والروم ايلى ووصل إلى كريت ، وجال أيضاً فى أجزاء بعض إيران والقفقاس وجنوبى روسية وهنجاريا والنمسا وألمانيا وهولندة .

وندهش كيف أن المجبى صاحب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » ، وقد ترجم لكثير من فضلاء الترك وأعيانهم فى ذلك العهد ، لم يذكر اسم أوليا جلبى على الرغم من أن هذا جاء الشام وساح فيها ومكث فى دمشق مدة ، ولم يترجم أيضاً لمرتضى باشا الذى جاء الجلبى فى حاشيته وظل واليا فى دمشق نحو سنة .

وأخيراً نأمل — بعد هذا كله — أن تنهض إحدى الهيئات فى مصر بنقل القسم الخاص برحلة أوليا فى مصر والسودان إلى العربية لنقف على أحوال بلادنا فى القرن السابع عشر بقلم رحالة تركى . وقيمة هذا النقل أو النشر على جانب كبير من الأهمية، إذا تبينا قلة من كتبوا عن مصر والسودان فى خلال تلك الفترة من الكتاب المسلمين الأتراك .

عبد الرحمن زكى

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٢ — ج ٣ و ٤ ص ٢١٦ وقد نشر فى عدة مقالات مقتبسات عن رحلة أوليا شلبى فى البلدان العربية .